﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء:41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اسْتِهْزاءُ الكُفّارِ بِعُمومِ الأنْبياءِ والرُّسُلِ

لمّا ذكَر اللّهُ تَعالى فيما سبق اسْتِهْزاءَ الكُفّار بالنَّبيِّ ﷺ وبالدّين، ثُمَّ ذكَر جزاءَ ذلك الاستهزاءِ؛ أتْبَعَهُ في هذه الآيَةِ بما يَدُلُّ عَلى أنَّ ذلك ليسَ خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ، بَلِ الحُكْمُ عامٌّ في الرُّسُلِ جميعًا؛ فكلُّ مَن تقدَّم مِنَ الرُّسُلِ وقَع من أُمَمِهم الاستهزاء بِهم وحَلَّ بِهم العِقاب والهلاكُ في الدُّنيا والآخِرَة، وفي ذَلِكَ تسليةٌ لَهُ ﷺ وتأسيَةٌ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: (هزأ) تدلُّ تَصريفاتُها على معنى السُّخريَّة[2]، ويأتي الهُزْؤُ بمعنى الاسْتِخْفاف[3]، وكأنَّ هذا تفسيرٌ باللّازِم؛ فإنَّ الذي يُسْتَهْزَأُ به؛ يُستهانُ بشأنِه ويُستخفُّ به[4]، وهذا هُو المَعْنى الوارِدُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

وحكى ابنُ جرير أنَّ الاستهزاءَ في كلام العَرب مَعْناهُ: إظهارُ المُسْتَهْزِئ لِلمُسْتَهْزَأ به مِنَ الفِعْلِ والقولِ ما يُرضيه في الظّاهِر، ولكنَّ ذلكَ يورثُهُ مَساءَةً في الباطِنِ[5].

2) ﴿فَحَاقَ﴾: (حيق) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنى نزولِ شيءٍ بشيءٍ، تقول العربُ: حاق به السُّوءُ يحيقُ؛ أي: حلَّ ونزلَ[6]، وقد يردُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هزأ).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: (هزأ).
(4) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 303.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيق).

بمعنى الإحاطَةِ لأجل الإهلاكِ، ومنهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1].

3) ﴿سَخِرُواْ﴾: (سخر) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى الاحْتِقار والاستِذْلالِ[2]، ومِنْهُ قَوْلُهم: سَخِرْتُ مِنْهُ، أي: هَزِئْتُ به وتهكَّمتُ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ سُنَّةِ اللهِ تَعالى في المُسْتَهْزِئينَ

في هذه الآيةِ بَيانُ سُنَّةِ اللهِ تَعالى في إهْلاكِ المُسْتَهْزِئينَ الذين اسْتَهْزَؤوا برُسُلٍ من رُسُلِ اللهِ الذين أرْسَلَهُم من قَبْلِكَ إلى أُمَمِهم، فحلَّ بِهم الذي كانوا به يَسْتَهْزِؤونَ مِنَ البلاءِ والعَذاب الذي كانَت رُسُلُهم تُخَوِّفُهم نُزولَهُ بِهم، فلَنْ يَعْدُوَ هؤلاءِ المُسْتَهْزؤونَ بِكَ من هؤلاءِ الكَفَرة أن يكونوا كأسْلافِهم مِنَ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ رُسُلَها، فيَنْزِلُ بِهم من عذابِ اللهِ تَعالى وسَخَطِه باسْتِهْزائِهم بِكَ نَظيرُ الذي نَزَل بِهِم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُملَةِ بِما قَبْلَها:

تَسْلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ وتَطْمينُهُ

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ معطوفٌ على جُملَةِ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾، والقصدُ من ذلك تَطْمينُ النَّبيِّ ﷺ وتَسْلِيَتُه[5]، والجُملتانِ مُتَّفِقتانِ في الخَبَريَّة، وبينَهُما وجْهُ حسَّن هذا العطفَ وهُو اتِّفاقهما في الفعليَّةِ.

ويجوزُ أن تكونَ مَعْطوفَةً عَلى جُملَةٍ مقدَّرة تقديرُها: واسْتَهْزؤوا بَك، ولَقَد اسْتَهْزَأ أمَمٌ برُسُلٍ من قبلك، والأوَّل أوْلى[6].

(1) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(3) الخطابي، غريب الحديث: 2/ 289.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 446، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 73.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.

بَلاغَةُ تَأْكيدِ الجُملَةِ بِـ (اللّامِ) و(قَدْ):

تَسْلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ بِما حَدَثَ لِإخْوانِه مِنَ الرُّسُلِ وهَلاكِ أعْدائِهِم

أُكِّد قولُ اللّه سُبحانَه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ باللّامِ الموطِّئة للقسمِ وبـ (قد) التي للتَّحقيق، وفي هذا التَّأكيدِ نِكاتٌ[1]، **منها**: أنَّ فيه عنايةً بالخبَرِ؛ لبيانِ أهمّيَّتِه، **ومنها**: أنَّ فيه مزيدَ تسليةٍ للنَّبيِّ ﷺ بمُساواة إخْوانِه مِنَ الرُّسُل وبتَعْذيبِ أعْدائِه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أحْزَنَه استهزاءُ النّاس بنَبيِّهم الذي جاءَ لِهدايَتِهم، ولكونِ الوحدانيَّة حقًّا لا يُستهزَأُ بها، بل إنَّ عِبادَتَهم الأوثانَ هي الخَليقَةُ بالاستهزاءِ، فجاءَ التَّأكيد لمواساتِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وليوقِعَ في نفسِه عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّ دعوةَ الحقِّ لا يُعارِضُها الفُضلاءُ، وأنَّ مِن طبيعة الأخِسّاء أن يَهْبِطوا في خُصومَتِهم إلى دَرَكِ الاستهزاءِ.

ومن هذه النكات: أنَّ التَّأكيد في الخَبَرِ هُو باعتبارِ ما تفرَّع عَنْهُ مِن ذِكْرِ حُلول العذاب بالمُشْركين؛ لأنَّ حالَهم حالُ مَن يَتَرَدَّد في أنَّ سببَ هَلاكِ الأُمَمِ المُتَقَدِّمة هو الاستهزاءُ بالرُّسل؛ إذْ لولا هَذا التَّردُّدُ مِنْهُم لَكانوا قد أخَذوا الحَيطةَ لأنفُسِهم مع النَّبيِّ ﷺ الذي جاءَهُم، فنَظَروا في أدِلَّة صِدْقِه وتأمَّلوها وما أعْرَضوا عَنها، أو أنَّهُم نُزِّلوا منزلَةَ المُتَرَدِّد إن كانوا يَعْلَمونَ ذَلِكَ؛ لعَدَمِ جَرْيِهِم عَلى مُقْتَضى هَذا العِلْم.

دِلالَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾ لِلمَفْعولِ:

حُلولُ العَذابِ مِنْ آثارِ الاسْتِهْزاءِ

حُذِفَ فاعلُ الاستهزاءِ ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ هَهُنا هُو بيانُ تَرتُّب أثَرِ الاستهزاءِ، وهُو حُلولُ العذابِ ونُزولُه لا تَعْيين المُسْتَهْزئينَ[2]؛ ولأنَّه لا يتعَلَّق غرضٌ بذِكْرِ الفاعل؛ فإنَّ العقوبةَ تتعلَّق بالاستهزاءِ أيًّا كان

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 423، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4867.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.

فاعِلُه؛ إذْ لَو ذُكِرَ الفاعِلُ لرُبَّما فُهِم أنَّ العقوبةَ إنَّما حصَلَت لأنَّ الفاعلَ هُم هَؤُلاء المَذْكورون، ولَو كانَ غَيْرُهم لَم تَكُن العُقوبَة كذلكَ أو أنَّهم لَم يُعاقَبوا.

دِلالَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿بِرُسُلٍ﴾:

بَيانُ اسْتِحْقاقِ حُلولِ العَذابِ بِالْمُسْتَهْزِئِينَ

نُكِّر لفظُ ﴿بِرُسُلٍ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ للدّلالَةِ عَلى التَّكْثيرِ والتَّفْخيم، فهُم رُسُلٌ ذَوو عددٍ كَبيرٍ، ومَقامُهُم عِنْدَ اللّه تعالى وفي أقوامِهم عظيمٌ[1]، وهذا أبْلَغُ في بَيانِ اسْتِحْقاقِ حلولِ العذابِ بالمُسْتَهْزِئ بِهِم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿بِرُسُلٍ﴾ دونَ (أنْبياء):

الرَّسولُ أفْضَلُ مِنَ النَّبيِّ

عَبَّر القرآنُ الكريمُ بـ ﴿بِرُسُلٍ﴾ دونَ (أنْبياء) في قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ للدّلالة على عُتُوِّ الأُمَم السّابقة وطُغْيانهم في الاسْتِهْزاءِ بِرُسل اللّه تَعالى وهُم أعْلى قَدْرًا؛ فإذا وقَعَ مِنْهُم مَعَ الرُّسُل فوُقوعُهُ مَعَ الأنْبياءِ والعُلَماءِ والصّالحينَ أيْسَرُ؛ بَل إنَّهُم قَتَلوا الأنبياءَ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مِّن﴾ في قَوْلِه: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

تَأْكيدُ المَعْنى وتَقْويَتُهُ

في التَّعبيرِ بِـ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ نُكتَتانِ:

إحداهُما: توكيدُ المَعْنى وتَقْويَتُهُ؛ وهُو الدّلالَةُ الغالبَةُ على (مِنْ) المُقْتَرِنَةِ بـ (قَبْلُ) و(بَعْدُ).

والأُخْرَى: أنَّه لمّا كان معنى التَّنكير في ﴿بِرُسُلٍ﴾ عَدَم الاستغراقِ؛ أكَّده بالخافضِ[2]؛ ليَشْمَل جميعَ الرُّسُل مِن قَبْلِه ﷺ، وعَلى هذا تكونُ ﴿مِّن﴾ ابتدائيَّةً، أي: مِن أوَّل مَن يُقالُ لَهُ رسولٌ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 423، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4867.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 423.

نُكْتَةُ وصْفِ الرُّسُلِ بِـ ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

اسْتِهْزاءُ الكُفّارِ بِعُمومِ المُرْسَلينَ

في وصْفِ الرُّسُل بـ ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الاستهزاءَ واقِعٌ عَلى النَّبيِّ ﷺ أيضًا كَما هُو واقِعٌ عليهم، وإلّا لَم تَكُن فائِدَةٌ في هَذا الوَصْفِ؛ لأنَّ كَوْنَ الرُّسُل قَبْلَهُ أمرٌ معلومٌ لا يُجهل[1].

دِلالَةُ الجُملَةِ الخَبَريَّةِ في الآيَةِ:

حَثُّ النَّبيِّ ﷺ عَلى الصَّبْرِ عَلى إيذاءِ الكَفَرَةِ

قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جملة خبريَّةٌ، ولا يُراد بها مُجَرَّد إعلام المُخاطَب بما تَضَمَّنَتْهُ هذه الجُملَةُ، وإنَّما المُرادُ بها تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ وتعزيةٌ لَهُ، وهي مُتَضَمِّنة معنى الأمرِ بالصَّبر؛ إذِ المَعْنى: إنِ اسْتَهْزأ بِكَ هؤلاءِ، فلا تَحْزَن؛ لأنَّه قَد اسْتُهْزِئَ برُسُلٍ مِن قبلكَ ذَوي عددٍ كثيرٍ وقَدْرٍ كبيرٍ، فاصْبِرْ كَما صَبَروا[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفاءِ في ﴿فَحَاقَ﴾:

الاسْتِهْزاءُ بِالرُّسُلِ سَبَبٌ لِحُلولِ العَذابِ

الفاءُ في ﴿فَحَاقَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تَدُلُّ على أنَّ ما بَعْدَها مُسَبَّب لِما قَبْلَها، أي: أنَّ حُلولَ العَذابِ ونُزولَ العِقاب بِهَؤلاء كانَ سَبَبُه اسْتِهْزاءَهُم بالرُّسُلِ عليهم الصَّلاة والسَّلام، وفي الفاءِ أيْضًا مَعْنى التَّعقيب[3]، وأنَّ نزولَ العذابِ بِهِم لَم يَطُل أمَدُه بَعْدَ صُدورِ الاستهزاءِ مِنْهُم، ولا يُنافي هَذا إمهالَ اللّه تَعالى لَهُم؛ لأنّه مَهْما طالَ زمَنُ الإمهالِ فإنَّه بالنِّسْبَةِ إلى نُزولِ العِقابِ عليهم يَسيرٌ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿فَحَاقَ﴾:

اخْتيرَ فِعْلُ ﴿فَحَاقَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 290.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4868.

اخْـتِـصـاصُ الـحَـيْـقِ في الاسْـتِـعْـمـالِ بِالمَكْروهِ

كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لأنَّ هذه المادَّةَ تدُلُّ على النُّزولِ والوُجوبِ والوقوعِ، وفي هَذا دِلالَةٌ على أنَّ العقابَ نزَلَ وحَلَّ بِهِم، وهُم حَقيقونَ به؛ لِما فعَلوا مِن السُّخريَّة برُسُلِ الله عليهم الصَّلاة والسَّلام، ولأنَّها تُسْتَعْمَلُ في إحاطَةِ المَكْروهِ، فلا تُسْتَعْمَلُ في الخَيْرِ البَتَّة، ولأنَّها تدُلُّ على الشُّمول واللُّزوم وتَمَكُّن ذلكَ مِنْهُم، بمعَنى أنَّ العذابَ نَزَل بِهِم نُزولًا شامِلًا، وأحاطَ بِهِم مِن كُلِّ جِهَةٍ إحاطَةً تامَّة، بحَيْثُ لَم يُفْلِتْ مِنْهُم أحَدٌ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِه ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾:

السُّخْريَةُ سَبَبٌ لِنُزولِ العَذابِ

عُبِّر بالمَوْصولِ وصِلَتِه ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ في قولِ الله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ولم يَرِد في النَّظْم القُرآنيِّ: (فَحاق بالسّاخِرين)؛ للإيماءِ إلى تَعْليلِ الحُكْم وهُو قولُه سُبْحانَهُ: ﴿فَحَاقَ﴾[2].

دِلالَةُ تَخْصيصِ السّاخِرينَ بِعِقابٍ خاصٍّ:

خِسَّةُ الاعْتِراضِ بِالسُّخْريَةِ

خُصَّ السّاخِرون بعِقابٍ خاصٍّ في قولِ الله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لأنَّهُم في مُعارَضَتِهم بِهذا النَّوْعِ مِنَ المُعارضَةِ كانوا أخِسّاء في ذاتِ أنْفُسِهم[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الجَرِّ (مِنْ) في قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُم﴾:

تَعْظيمُ شَأْنِ الرُّسُلِ ﷺ

الجارُّ والمَجْرورُ (مِنْهم) متعلّق بـ ﴿سَخِرُواْ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، والضَّمير المجرورُ راجِعٌ إلى الرُّسُلِ في قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، والفائِدَةُ مِنْ إيرادِه زيادةُ تقريرِ كون العذابِ من أجلهم؛ تعظيمًا لشأنِهم وترفيعًا لمكانتهم[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 212.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 4868.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿مِنْهُم﴾:

بَيانُ عُلُوِّ مَنْزِلَةِ الرُّسُلِ عليهم السلام

الضَّمير المجرور في ﴿مِنْهُم﴾ من قولِ الله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عائدٌ إلى الرُّسُلِ، وهو الأظهرُ؛ لبيانِ عُلُوِّ مَرْتَبَتِهم(1).

وجوَّز بعضُ أهل العلم عودَ الضَّمير إلى أُمَمِهم، والتَّقدير: (فحاقَ بالذينَ سَخِروا مِن أُمَم الرُّسُل)، فتكون (مِن) على هذا الوجه بيانيَّةً، ورُدَّ هذا الوجهُ بأنَّه على خلاف الأصلِ، مِن جهة عَوْدِ الضَّمير على غير مذكورٍ.

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الضَّمير راجع إلى المُسْتَهْزئين، فيكونُ قولُه: ﴿مِنْهُم﴾ حالًا من ضمير الفاعلِ في ﴿سَخِرُواْ﴾، ورُدَّ بأنَّ التَّقدير على هذا: فحاقَ بالذين سَخِروا كائنينَ مِنَ المُسْتَهْزِئين، وهَذا لا حاجةَ إليهِ؛ لأنَّ ذلكَ مَفْهومٌ مِن قَوْلِهِ: ﴿سَخِرُواْ﴾(2).

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى الفاعِلِ:

المُسارَعَةُ إلى بَيانِ نُزولِ الشَّرِّ بِالمُسْتَهْزِئينَ

قُدِّم الفاعلُ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ على الجارِّ والمجرورِ ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ مِنْ قولِ الله سُبْحانَه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ والنُّكتَةُ في هذا التَّقديم المُسارعَةُ إلى بَيانِ لُحوقِ الشَّرِّ ونُزولِ العذابِ بهِم(3)، ولأنَّ المَعْنى يَقْتَضي ذلك، فلا يَصِحُّ أن يُقالَ: (لقَد اسْتُهْزئ برسلٍ مِن قبلكَ، فحاقَ ما كانوا به يَسْتهزئون بالذين سَخِروا منهم)؛ لأنَّ الضَّمير في ﴿كَانُواْ﴾ عندَ ذلكَ لا يَعودُ عَلى مَذْكورٍ مُتَقَدِّم؛ لأنَّه لَم يَتَقَدَّم ذِكْرٌ لِلمُسْتَهْزئينَ؛ فالفِعْلُ مَبْنِيٌّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، بِخلافِ قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فإنَّ الضَّمير في ﴿كَانُواْ﴾ يعودُ عَلى المُتَقَدِّم وهُم الذين سَخِروا مِنْهُم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/ 445.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114.

دِلالَةُ الجُملَةِ الخَبَريَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَحَاقَ﴾:

كِفايَةُ الله تَعالى نَبيَّهُ ﷺ شَرَّ المُسْتَهْزِئينَ

الجُملة في قولِ الله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، مُتَضَمِّنة إخبارَ الله تَعالى بما جَرى لِمَن اسْتَهْزَأ بالرُّسل السّابقين عليهم الصَّلاةُ والسَّلام، والمقصودُ مِنْها الوعيدُ والتَّهديد لِمَن اسْتَهْزَأ بالنَّبيِّ ﷺ، وفيها تثبيتُه عليه الصَّلاة والسَّلام على عدَمِ الاكْتِراثِ بِهِم؛ لأنَّ مصيرَهُم إلى الهلاكِ والعذابِ الأليمِ المُرَتَّب على استهزائِهم، وأنَّه سُبحانه يكفي نبيَّه ﷺ شرَّهم وإذايَتَهُم[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مَّا﴾:

تَهْويلُ العَذابِ وتَفْظيعُهُ

اختيرَ التَّعبيرُ بـ ﴿مَّا﴾ في قولِ الله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لتَعَدُّد المرادِ بها؛ فيجوزُ أن تَكون اسْمًا موصولًا بمَعْنى (الذي)، والمَعْنى: فأحاطَ بِهِم الذي كانوا به يَسْتَهْزئون، والنُّكْتَةُ في التَّعبيرِ بالاسْم الموصولِ: تهويلُ هذا العذابِ وتَعْظيمُهُ؛ لأنَّ في الاسم الموصولِ إبْهامًا يَصْلُحُ لهَذِه الدّلالة، فتَذْهَب النَّفْسُ كُلَّ مذهَبٍ في مُحاولَةِ تَعْيينِه.

ويجوزُ أن تكون ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً، والتَّقدير: (فأحاط بِهِم وبالُ استهزائِهم)[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

تَصْويرُ حالِ الاسْتِهْزاءِ واسْتِحْضارِها في الذِّهْنِ

في التَّعْبير بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من قولِ الله سُبْحانَهُ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إيماءٌ إلى اسْتِمرارِهِم - قبلَ حُلول العذابِ بِهِم - عَلى هذا الاستهزاءِ ودَوامِهِم عليه، وفيه تصويرٌ لهذا الاستهزاءِ الحاصلِ في الماضي بِصورَةِ الحاصلِ الآن؛ لِقَصْدِ اسْتِحْضاره في الذِّهن زيادةً في التَّهويل والتَّشْنيع.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/ 444.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114.

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في ﴿فَحَاقَ﴾:

الإعْـلامُ بِكَمالِ المُـلابَـسَـةِ بَـيْنَ الـعَـذابِ والاسْتِهْزاءِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مجاز مرسلٌ، وذلك لأنَّ الذي أحاطَ بهم هُو العذابُ والعقاب لا الاستهزاءُ نفسُه ولا المُسْتَهْزَأُ بِهِ، ولَكِنَّ التَّعبير القرآنيَّ دلَّ على أنَّ الاستهزاءَ ذاتَهُ هُو الذي يَحيق للإشارَةِ إلى الجزاءِ وِفاقًا للجَريمَة؛ فهُو مجازٌ مُرْسَلٌ بِعَلاقَةِ السَّببيَّة، حيث أُطلق السَّبَبُ على المُسَبَّب، والنُّكتة في ذلك: إرادةُ المُبالغَةِ، والإيذان بِكَمالِ المُلابَسَة بَيْنَهُما، وأنَّ العذابَ ملازم لهذه السُّخرية لا ينفكُّ عنها بحالٍ، فحيثُما وُجد التَّطاول على أولياء اللّه تعالى؛ وُجد معه عذابُ اللّه تعالى وسخطُه على المُسْتَهْزئين بِهِم[1].

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى مُتَعَلَّقِهِ:

تَـشْـنـيـعُ شَـأْنِ الاسْتِهْزاءِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ على مُتَعلَّقه ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ لإرادَةِ الاهتمام بالمقدَّم وهو المستهزأ بِهِ، تعظيمًا له، وتشنيعًا لشأن السُّخرية به.

وفي التَّقديم معنًى آخرُ لفظيٌّ وهو رعايةُ تَناسُب الفواصلِ؛ إذْ لَوْلا هذا التَّقديم لفاتَ التَّناسب الصَّوتيُّ بين أواخِر الآيِ[2].

نُكْتَةُ التَّنْويعِ بَيْنَ الاسْتِهْزاءِ والسُّخْريَةِ في الآيَةِ:

المُـغـايَـرَةُ بَـيْنَ الأَلْفاظِ تَفَنُّنًا في التَّعْبيرِ

نوَّع التَّعْبيرُ القرآنيُّ في اسْتِعْمالِ مادَّة السُّخريَّة والاستهزاءِ مَعَ قُرْبِهِما في المَعْنى في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فذكر الاستهزاءَ أوَّلًا ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾؛ لكونه الأشهرَ في الاستعمالِ، ولمّا أُعيدَ جاء التَّعبير بالسُّخرية - ﴿سَخِرُواْ﴾ - ، ولمّا أُعيد ثالثًا؛ رُجِعَ إلى فِعْلِ الاستهزاءِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 97، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 196، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/ 44.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، والآلوسي، روح المعاني: 4/ 97.

- ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ - ؛ لكونه أخفَّ مِنْ (يَسْخَرون)، كلُّ ذلكَ مِنْ بابِ التَّفنُّن في التَّعبير، وهو من بديع فصاحةِ القُرآن الكريم[1].

ومِمّا يُذْكَر في سِرِّ ذلكَ التَّنْويع في الاسْتِعْمالِ أنَّ الكُفّار اسْتَهزؤوا بالرُّسُل ﷺ وبما جاؤوا به وسَخِروا مِنْهُم ومِن أعمالِهم كَما حدَثَ ذلك مِن قوم نوحٍ مَعَ نوحٍ، وكما حدَثَ مَعَ غيرِه مِنَ الأنبياءِ؛ حَيْثُ وقَعَ مِنْهُم الاسْتِهْزاء بالأنْبياءِ مِن غَيْرِ فِعْلٍ يُستهزَأُ به مِن أجلِه إلّا دَعْوى الرِّسالة أو النُّبوَّة؛ وأمّا السُّخريَّة فتدُلُّ على فِعْلٍ يقَعُ مِنَ المَسْخورِ مِنْهُ أوَّلًا، كما حدثَ مَع نوحٍ ﷺ عندما كانَ يَصْنَعُ السَّفينة، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ [هود:38].

نَوْعُ الفاصِلَةِ في الآيَةِ وفائِدَتُها:

تَسْلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ ومَنِ اقْتَدى بِهِ

الفاصلةُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هي ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وهي فاصلةٌ مصدَّرةٌ؛ لِوُرودِ مادَّتِها في صَدْرِ الآيَةِ ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾، وفائدةُ ذلك تَسْلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ ومَن تَأسّى به في دَعْوَتِه إلى تَوْحيدِ اللّه سُبْحانَه، كَما أنَّ فيها تهديدًا ووعيدًا لِمَن اسْتَهْزأ مِنْهُ وسَخِرَ به في زَمانِه وفي الأزْمِنَة بعدَهُ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(حاقَ) و(أحاطَ):

الحَيْقُ أخَصُّ مِنَ الإحاطَةِ

الإحاطَةُ أعَمُّ مِن الحَيْقِ، وذلك لأنَّ الفعلَ (حاقَ) لا يُسْتَعْمَلُ في الخَيْرِ، وإنَّما هو خاصٌّ بإحاطَةِ المَكْروهِ، بخِلافِ الفعلِ (أحاطَ)؛ فيَكونُ في الخَيْرِ ويَكونُ في الشَّرِّ، فهُوَ أعمُّ[3]، ولذا قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:12].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.

(2) رشا بنت عبد الله الزيد، الفواصل القرآنية في سورة الأنبياء وعلاقتها بمقصودها: دراسة بلاغية، ص: 245.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»